مقدمـــــة

لأول وهلة يبدو تعبير "قبول الآخر" غريبا على الأذن ولأسباب سياسية يتسرع كثيرون في تصنيفه في خانة مساعي "علمنة" العقل المسلم، والحقيقة التي يكشف عنها التدقيق أن القضية تهم كل من يدين بدين سماوي وأن ما يحيط بها من غموض أو سوء ظن ليس إلا نتيجة للتقاطع مع بعض الأجندات الثقافية القادمة من الخارج وهو واقع لا مفر من الاعتراف به، لكن "الحكمة ضالة المؤمن" أينما وجدها فهو أحق بها ومثل هذا التشابه أو حتى الاتفاق لا يعني رفض الدعوة لقبول الآخر، لمجرد صدورها عن غيرنا فديننا يعلمنا أن "نعرف الرجال بالحق" لا أن نعرف الحق بالرجال، بل المعيار عند التقييم ينبغي أن يكون معيارا شرعيا في المقام الأول وإنسانيا في المقام الثاني منضبطا بما أحله الله وبما حرمه.

وقبل الولوج إلى مناقشة قضية "ثقافة قبول الآخر" نلزم أنفسنا بقيد نراه موضوعيا هو ألا نناقش المفهوم تحت وطأة مشاعر محتقنة فالمثقف رائد وكما علمنا الرسول صلى الله عليه وسلم فإن "الرائد لا يكذب أهله"، ولا يجوز أن ينطق بما لا يراه حقا خوفا من "الناس" فالمجتهد أيا كان مجال اجتهاده لا يجوز أن يخاف أحدا إلا الله. وقد أفاض العلماء والمؤرخون قديما وحديثا في تحذير كل حامل قلم من الخوف من السلطان ولدينا تراث عظيم في هذا السياق يمكن أي يمنح كل من يرهبه سيف السلطة القدر الكافي من التسلح بالثقة في الله ومن ثم الشجاعة ليجهر بالحق غير هياب من الحاكم، غير أن الخوف من الناس كان - ولم يزل - من القيود الخطيرة على حركة الاجتهاد والتجديد ولعل خطورته تكون مضاعفة إذا أدركنا حجم التأثير الذي أصبحته تملكه وسائل الإعلام في

الناس ومن ثم أصبح كل مجتهد يكتب ونصب عينيه - ولو بشكل مضمر - صورته في هذه المرآة اللامعة التي يمكن أن تتحول إلى نصل حاد في أية لحظة!

بل لا نبالغ إذا قلنا إذا إن الخوف من الناس أصبح أشد وطأة من الخوف من السلطة في الكثير من القضايا السياسية والثقافية، ومن النماذج النادرة في تراثنا الفقهي الإسلامي التي تحدث فيها كاتبها عن سلطة "الجماهير" وتأثيرها في المجتهد ما كتبه العلامة للعلامة أبي إسحاق إبراهيم بن موسى المعروف بالشاطبي في كتابه "الاعتصام": يقول الشاطبي في "خطبة الكتاب":

"وكل صاحب مخالفة فمن شأنه أن يدعو غيره إليها، ويخص سؤاله بل سواه عليها، إذ التأسي في الأفعال والمذاهب موضوع طلبه في الجبلة، وبسببه تقع في المخالف المخالفة، وتحصل من الموافق المؤالفة، ومنه تنشأ العدواة والبغضاء للمختلفين".

ثم يقول: "وإنما قدمت هذه المقدمة لمعنى أذكره. وذلك أني ولله الحمد لم أزل منذ فتق للفهم عقلي ووجه شطر العلم طلبي، أنظر في عقلياته، وشرعياته، وأصوله وفروعه لم أقتصر منه على علم دون علم، ولا أفردت عن أنواعه نوعاً دون آخر، حسبما اقتضاه الزمان والمكان، وأعطته المنة المخلوقة في أصل فطرتي، بل خضت في لججه خوض المحسن للسباحة، وأقدمت في ميادينه إقدام الجريء، حتى كدت أتلف في بعض أعماقه، أو أنقطع في رفقتي، التي بالأنس بها تجاسرت على ما قدر لي، غائباً عن مقال القائل وعذل العاذل، ومعرضاً عن صد الصاد ولوم اللائم".

ويضيف الشاطبي: "وكنت في اثناء ذلك قد دخلت في بعض خطط الجمهور من الخطابة والإمامة ونحوها فلما أردت الاستقامة على الطريق، وجدت نفسي غريباً في جمهور أهل الوقت لكون خططهم قد غلبت عليها العوائد، ودخلت على سننها الأصلية شوائب

من المحدثات الزوائد، ولم يكن ذلك بدعاً في الأزمنة المتقدمة، فكيف في زماننا هذا.... فتردد النظر بين أن أتبع السنة على شرط مخالفة ما اعتاد الناس فلا بد من حصول نحو مما حصل لمخالفي العوائد، ولا سيما إذا ادعى أهلها أم ما هم عليه هو السنة لا سواها إلا أن في ذلك العبء الثقيل ما فيه من الأجر الجزيل وبين أن أتبعهم على شرط مخالفة السنة والسلف الصالح، فأدخل تحت ترجمة الضلال عائذاً بالله من ذلك، إلا أني أوافق المعتاد، وأعد من المؤالفين، لا من المخالفين، فرأيت أن الهلاك في أتباع السنة هو النجاة، وأن الناس لن يغنوا عني من الله شيئاً، فأخذت في ذلك على حكم التدريج في بعض الأمور، فقامت علي القيامة، وتواترت علي الملامة، وفوق إلي العتاب سهامه، ونسبت إلى البدعة والضلالة، وأنزلت منزلة أهل الغباوة والجهالة، وإني لو التمست لتلك المحدثات مخرجاً لوجدت، غير أن ضيق العطن، والبعد عن أهل الفطن، رقى بي مرتقى صعباً وضيق علي مجالاً رحباً، وهو كلام يشير بظاهره إلى أن اتباع المتشابهات، لموافقات العادات، أولى من اتباع الواضحات، وإن خالفت السلف الأول".

بل يرسم الشاطبي صورة مخيفة لسطوة "الجماهير" إذا وجدت من مجتهد ما لا يوافقها فيقول: "وربما ألموا في تقبيح ما وجهت إليه وجهتي بما تشمئز منه القلوب، أو خرجوا بالنسبة إلى بعض الفرق الخارجة عن السنة شهادة ستكب ويسألون عنها يوم القيامة

فتارةً نسبت إلى القول بأن الدعاء لا ينفع ولا فائدة فيه كما يعزى إلى بعض الناس، بسبب أني لم ألتزم الدعاء بهيئة الاجتماع في أدبار الصلاة حالة الإمامة

* * * * *

وتارةً نسبت إلى الرفض وبغض الصحابة رضي الله عنهم، بسبب أني لم ألتزم ذكر الخلفاء الراشدين منهم في الخطبة على الخصوص، إذ لم يكن ذلك من شأن السلف في

خطبهم، ولا ذكره أحد من العلماء المعتبرين في أجزاء الخطب

* * * * *

وتارةً أضيف إلي القول بجواز القيام على الأئمة، وما أضافوه إلا من عدم ذكري لهم في الخطبة، وذكرهم فيه محدث لم يكن عليه من تقدم.

وتارة أحمل على التزام الحرج والتنطع في الدين، وإنما حملهم على ذلك أني التزمت في التكليف والفتيا الحمل على مشهور المذهب الملتزم لا أتعداه، وهم يتعدونه ويفتون بما يسهل على السائل ويوافق هواه، وإن كان شاذاً في المذهب الملتزم أو في غيره وأئمة أهل العلم على خلاف ذلك

* * * * *

وتارةً نسبت إلى معاداة أولياء الله، وسبب ذلك أني عاديت بعض الفقراء المبتدعين المخالفين للسنة المنتصبين بزعمهم لهداية الخلق، وتكلمت للجمهور على جملة من أحوال هؤلاء الذين نسبوا إلى الصوفية ولم يتشبهوا بهم.

وتارةً نسبت إلى مخالفة السنة والجماعة، بناءً منهم على أن الجماعة التي أمر بأتباعها وهي الناجية ما عليه العموم، ولم يعلموا أن الجماعة ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعون لهم بإحسان

* * * * *

وكذبوا علي في جميع ذلك، أو وهموا، والحمد لله على كل حال".

ويروي الإمام الشاطبي عن أحد كبار الحفاظ ما عاناه من هذا الباب فيقول: "فكنت على حالة تشبه حالة الإمام الشهير عبد الرحمن بن بطة الحافظ مع أهل زمانه إذ حكى عن نفسه فقال: عجبت من حالي في سفري وحضري مع الأقربين مني والأبعدين،

والعارفين والمنكرين، فإني وجدت بمكة وخراسان وغيرهما من الأماكن أكثر من لقيت بهـا موافقاً أو مخالفاً، دعاني إلى متابعته على ما يقولـه، وتصديق قولـه والشهادة لـه

فإن كنت صدقته فيما يقول وأجزت لـه ذلك كما يفعله أهل هذا الزمان سماني موافقاً

وإن وقفت في حرف من قولـه أو في شيء من فعله سماني مخالفاً

وإن ذكرت في واحد منها أن الكتاب والسنة بخلاف ذلك وارد سماني خارجياً

وإن قرأت عليه حديثاً في التوحيد سماني مشبهاً

وإن كان في الرؤية سماني سالمياً

وإن كان في الإيمان سماني مرجئياً وإن كان في الأعمال سماني قدرياً

وإن كان في المعرفة سماني كرامياً

وإن كان في فضائل أبي بكر وعمر سماني ناصبياً

وإن كان في فضائل أهل البيت سماني رافضياً

وإن سكت عن تفسير آية أو حديث فلم أجب فيهما إلا بهما سماني ظاهرياً

وإن أجبت بغيرهما سماني باطنياً

وإن أجبت بتأويل سماني أشعرياً

وإن جحدتهما سماني معتزلياً

وإن كان في السنن مثل القراءة، سماني شفعوياً

وإن كان في القنوت سماني حنفياً

وإن كان في القرآن سماني حنبلياً

وإن ذكرت رجحان ما ذهب كل واحد إليه من الأخبار – إذ ليس في الحكم والحديث محاباة – قالوا: طعن في تزكيتهم، ثم أعجب من ذلك أنهم يسمونني فيما يقرؤون علي من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يشتهون من هذه الأسامي، ومهما وافقت بعضهم عاداني غيره، وإن داهنت جماعتهم أسخطت الله تبارك وتعالى، ولن يغنوا عني من الله شيئاً. وإني مستمسك بالكتاب والسنة وأستغفر الله الذي لا إله إلا هو وهو الغفور الرحيم".

ويعقب الإمام الشاطبي على هذه الحكاية بقوله: "هذا تمام الحكاية فكأنه رحمه الله تكلم على لسان الجميع. فقلما تجد عالماً مشهوراً أو فاضلاً مذكوراً، إلا وقد نبذ بهذه الأمور أو بعضها، لأن الهوى قد يداخل المخالف".

وهذه الدراسة تستهدف بحث قضية "ثقافة قبول الآخر" دونما خوف من حاكم أو محكوم وبعيدا عن السياقات الخارجية التي تجعل بعض القضايا مصدر خوف لبعض أصحاب الأقلام فقهاء كانوا أو مفكرين، فالحق أحق أن يتبع.

نسأل الله أن ينفع بهذا العمل.

والله من وراء القصد

ممدوح الشيخ

قويسنا في

العشرين من ربيع الآخر ١٤٢٨ هجرية

الثامن من مايو ٢٠٠٧ ميلادية

* * * * *